صه وهي المقالة الصامتة

الصمت البـــليغ

للاستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

روى أن لقمان الحكيم جلس ذات يوم إلى نبي الله داود عليه السلام ، وهو يعمل درعاً من حديدة ، فعجب من ذلك لقمان ، واعتملت في نفسه عواطف مختلفة ، وأحاسيس متباينة ، لأنه لم ير درعاً قبل الآن يصنعها صانع ملهم ، في براعة وإتقان ، وحذق وافتنان . بيد أنه آثر الصمت ، لأنه وجده أنسب من الكلام المقام ، إذ لم تبد على داود عليه السلام علائم إجابته عن حقيقة ما يصنع إذا سأله ، وكنه ما يعمل إذا طلب منه بيان شيء من أمره ، وظل لقمان على هذه الحال سنة كاملة ، تمت فيها الدرع ، وقامها داود على نفسه ، وقال : درع حصينة ليوم قتال !

فقال لقمان : الصمت حكم ، وقليل فاعله .. !

وهكذا يأخذ حديث الصمت بمجامع القلوب ، كما يأخذ حديث القول بمجامع القلوب ، حتى ليكاد يراجع الإنسان نفسه فيما علم من بلاغة الكلام ، وأنهـــا مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، وأن ذلك إن جاز حيث يستباح القول ، فلا يجوز الاقتصار على ذلك حيث يمتنع على الإنسان الكلام ، أو بمعنى أدق حيث يمنع من الإبانة والإفصاح ..

والصمت في بعض الأحايين أبلغ من الكلام . ولا يضير القارئ أن يجد مقالا نالت منه يد بالاختصار أو الحذف والبتر ، وحكمت عليه دون روية بالوأد والقتل ، وقضت على جمهرة القارئين بالحـــرمان من أصفى مورد ، في عصر التاثت فيه الضمائر ، واشتركت الألباب .. أجل لا يضير القارئ المخلص الذي تعود أن ينال غذاءه الفكري الكامل من كاتب بعينه ، وأديب بذاته — ليكفيه أن يقرأ العنوان فحسب ، ليستخلص منه الفكرة ، وأن ينظر إلى الصحيفة البيضاء ، فتتحول إلى نور يضيء معالم النفس ، ويملأ شغاف القلب ، ثم ينطبع في ذهنه كل ما كان يجب أن يسطر عليها ، ويسجل فيها ، ويراد بها .. !!

ولقد يسهب الخطيب ويشقشق ، ويطنب الكاتب ويتدفق ، ويتلاعب القاص أو الباحث بالألفاظ ويشقق ، ثم لا يعرف السامع أو القارئ ما يريد أن يرمي إليه أحد هؤلاء من غرض ، أو يهدف إليه من غاية ، ويظل حائرا بين آفاق من الفكر الشتيت ، وركام من القضايا والآراء لا تنعقد بينها صلة ، ولا تجمع بين أطرافها آصرة ..

وقد يشير الأديب أو يصمت ، فيفهم الناس عنه ما يريد أن يقول ، ويتجلى لهم رأيه على أحسن ما تكون الآراء عرضـــاً وتحليلا ، ويكون لهم من صمته أبلغ بيان ، وأوضح مقال ، وأفصح كلام .. !

إلا أنه إذا جاز أن يكم فم خطيب لشيء ، أو يعقل لسان كاتب أو شاعر شاد ممن يتصدون للاصلاح وقد سلمت نياتهم — لأن ما يقوله أحدهم ربما يخطئه التوفيق فيبعد به عن مبتغاه ، ويجانب الغرض مبتغاه ، فيثير الفوضى والشغب ، ويورث العناء والنصب — إذا جاز ذلك مع واحد من هؤلاء ، فلا ينبغي أن يتبع مع من يترقب الشعب بأسره ، بل العالم العربي والإسلامي جميعاً نتاج قرائحهم ، وثمار أفكارهم ، ليحفلي الناس هنا وهناك بالفكرة الواضحة ، والقولة الناصعة ، والرأي السديد ، يشرق على الناس إشراق الشمس الضاحية ، فيبدد غياهب الجهالة ، ويزيل غاشية العماية ، ويخرج بالقلوب الضالة إلى واضح النهج ، وبالأفئدة الحيرى إلى لاحب الطريق وسواء السبيل ، ويقع من التهم الباطلة موقع الماء يغسل الأوساخ ، ويزيل الأدران ، والعدل يمحق الزور والبهتان ، والحزم يقضي على الغلم والطغيان

يجب على الألسنة أن تنطلق لتفصح عما يكنه الجنـــان ، ولا يفصح عنه غير البيان .. وعلى الأقلام أن تتحرر لتعبر عن خلجات المواطف ، ومومضات الأذهان ، فإن قلم الكاتب الكبير قبس من نور الإيمان . وسلاح من أسلحة الديان ، وجدول رقراق من فيض النبوة لا يغيض ..

لا تكمموا الأفواه الطاهرة ، فذلك يورث الكبتة الدامية ، ويؤدي إلى النكسة القاضية ، فتتهامس الشفاه ، وينبعث دعاة الشر بالفساد في كل مكان ، وتتسابق شائمات السوء على كل